
كريستوفر
كولمبس
السلسلة التاريخية


ايسلندة
انكلترة
فرنسا
باڤيا
جنوى
ايطاليا
إسپانيا
بالوس
پورتو سانتو
ماديرا
جزر الكناري
افريقيا
رحلة الانطلاق
رحلة العودة

الرّحلة الأولى[1]

لكريستوفر كولمبس

امريكا الشمالية

المحيط الاطلسي

سان سلفادور

كوبا

سان دومنجو

جزر الهند الغربية

المحيط الباسيفيكي

امريكا الجنوبية

عِنْدَما أَقْلَعَتْ ثَلاثُ سُفُنٍ مِنْ پالوسَ عامَ ١٤٩٢ ، غَيَّرَتْ مَجْرَى التّاريخِ . وهذِهِ قِصَّةُ **كريستوفر كولُمْبُسَ** ، الرَّجُلِ الّذي قادَ تِلْكَ السُّفُنَ ، وقِصَّةُ أَعْظَمِ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ ، ذاتِ شَأْنٍ عَظيمٍ ، قامَ بِها الإِنْسانُ .

طُبعَ في انكلترا
١٩٨٠



بقلم : ل. دو غارد پيتش
نقله الى العربيّة : محمد العدناني
وضع الرسوم : جون كيني



مكتبة لبنان

كريستوفر كولمبُسُ

عِنْدَما أَقْلَعَ كريستوفر كولمبُسُ مِنْ مَرْفَأِ بالوسَ الصَّغيرِ في إسبانيا ، في الثّالِثِ مِنْ شَهْرِ آبَ ، عامَ ١٤٩٢ ، بَدَأَ بِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ غَيَّرَتْ مَجْرَى التّاريخِ .

رُبَّما كانَتْ هذِهِ قِصَّةَ واحِدَةٍ مِنْ أَشْهَرِ حَوادِثِ التّاريخِ أَهَمِّيَّةً في تاريخِ الإِنْسانِ الطَّويلِ كُلِّهِ .

وُلِدَ كريستوفَر كولمبُسُ في مَدينَةِ جَنَوى الإِيطالِيَّةِ بَيْنَ عامَيْ ١٤٤٠ — ١٤٥٠ ؛ لِأَنَّ تاريخَ مِيلادِهِ غَيْرُ مَعْرُوفٍ بِدِقَّةٍ . وجَنَوى مَدينَةٌ ذاتُ ميناءٍ ، ويُفْتَرَضُ أَنَّ كولمبُسَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَضَى كَثيرًا مِنْ وَقْتِهِ في المِيناءِ ، مُراقِبًا السُّفُنَ وهِيَ تأْتي وتَذْهَبُ ، ومُتَحَدِّثًا مَعَ البَحّارَةِ .

كانَتْ سُفُنُ تِلْكَ الأَيّامِ سُفُنًا شِراعِيَّةً طَبْعًا ، وأَصْغَرَ جِدًّا مِنْ سُفُنِ اليَوْمِ البُخارِيَّةِ ، صُبِغَتْ بِأَصْباغٍ زاهِيَةٍ ، ونُصِبَتْ عَلَيْها أَشْرِعَةٌ مُلَوَّنَةٌ ، وَلِكُلٍّ مِنْها مُؤَخَّرٌ عالٍ ، وسُورٌ ذُو شُرُفاتٍ أَحْيانًا كالقِلاعِ البَرِّيَّةِ .

أَبْحَرَتْ بكولمبُسَ سَفِينَةٌ مِثْلُ هذِهِ ، في رِحْلَتِهِ البَحْرِيَّةِ الاكْتِشافِيَّةِ الكُبْرَى ، بَعْدَ أَرْبَعِينَ عامًا مِنْ مَوْلِدِهِ .



لا نَعْرِفُ إلا شَيْئًا قَلِيلًا جِدًّا عَنْ طُفُولَةِ كُولُمْبُسَ . وقَـدْ جـاءَ في كِتابٍ ، أَلَّفَهُ ٱبْنُهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ كانَ تِلْمِيذًا في جامِعَةِ بافيا ، بَيْنَما ذَكَرَ كولُمْبُسُ نَفْسُهُ أَنَّهُ كانَ بَحّارًا في الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ .

يُرَجَّحُ أَنَّهُ كانَ بَحّارًا في تِلْكَ السِّنِّ ؛ لِأَنَّ الشُّبّانَ في تِلْكَ الأَيّامِ كانُوا يَقُومُونَ بِأَعْمالٍ كَثِيرَةٍ ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرُّوا في إِحْدَى الحِرَفِ . أَمّا أَبُوهُ فكانَ حائِكًا ، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كريستوفَرُ قَدْ ظَلَّ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ يُمارِسُ مِهْنَةَ الأُسْرَةِ .

ولا نَعْرِفُ الأَسْبابَ الّتي جَعَلَتْهُ يَتْرُكُها ، ولكِنَّ سِرَّ البَحْرِ العَجِيبَ قَدْ أَثَّرَ في نَفْسِهِ تَأْثِيرًا شَدِيدًا ، جَعَلَهُ يَفْتَتِنُ بِهِ . وكانَ النّاسُ في تِلْكَ الأَيّامِ لا يَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنِ البِحارِ ، يَتَجاوَزُ بِضْعَةَ أَمْيالٍ عَنِ الشّاطِئِ .

إِنَّ الرِّحْلاتِ الّتي قامَ بِها كولُمْبُسُ بَلَغَ بِها شاطِئَ أَفْرِيقيا الغَرْبِيَّ ، حَيْثُ كادَ القَراصِنَةُ أَنْ يَأْسِرُوهُ ، ووَصَلَ شَمالًا إِلَى شَواطِئِ إِسبانيا وفَرَنْسا . وزارَ إِنْكِلترا ، ويُرَجَّحُ أَنَّهُ أَبْحَرَ شَمالًا حَتَّى بَلَغَ إِيسلَنْدَةَ .



فِي عامِ ١٤٧٩ تَقْرِيبًا ذَهَبَ كولُمْبُسُ لِيَعِيشَ فِي جَزِيرَةِ بورتو سانْتو ، الَّتِي تَجِدُها عَلَى الخَرِيطَةِ قُرْبَ مادِيْرا ، والَّتِي كانَتِ البُرْتُغالُ تَمْلِكُها .

وقَدْ حَدَثَتْ هُنا أَشْياءُ كَثِيرَةٌ ، ساعَدَتْ كولُمْبُسَ عَلَى أَنْ يَعْقِدَ النِّيَّةَ عَلَى اكْتِشافِ الأُوقيانوسِ المَجْهُولِ غَرْبًا .

كانَ أَوَّلَ تِلْكَ الأَشْياءِ تَزَوُّجُهُ ابْنَةَ رَجُلٍ اسْمُهُ بارثولوميو بِرِسْتِرِلُّو ، وَهُوَ رُبّانٌ بَحْرِيٌّ مَشْهُورٌ ، وبَحّارٌ ذائِعُ الصِّيتِ . وقَدْ أَخَذَ كولُمْبُسُ مِنْ حَمِيهِ خَرائِطَ وآلاتٍ بَحْرِيَّةً ، وتَعَلَّمَ مِنْهُ كُلَّ ما كانَ مَعْرُوفًا فِي ذٰلِكَ العَصْرِ عَنِ الرِّياحِ ، والتَّياراتِ البَحْرِيَّةِ غَرْبَ مادِيْرا .

كانَ كولُمْبُسُ يَحْصُلُ عَلَى مَعاشِهِ آنذاكَ بِرَسْمِ خَرائِطَ بَرِّيَّةٍ وبَحْرِيَّةٍ ونَسْخِها . وبالطَّبْعِ كانَتْ هٰذِهِ غَيْرَ كامِلَةٍ ؛ لِأَنَّ الأَمْرِيكَتَيْنِ الشَّمالِيَّةَ والجَنُوبِيَّةَ لَمْ تَكُونا عَلَيْها .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْلَمُ ماذا يُوجَدُ بَيْنَ جَزِيرَةِ بورتو سانتو وبَيْنَ اليابانِ . وعِنْدَما نَظَرَ كولُمْبُسُ إِلَى خَرائِطِهِ البَحْرِيَّةِ ، ثُمَّ حَدَّقَ فِي الأُوقيانوسِ ، كانَ راغِبًا جِدًّا فِي اكْتِشافِ ذٰلِكَ .



عَرَفَ كولمبُسُ أَنَّ الأَرْضَ كُرَوِيَّةٌ ، أو هُوَ – عَلَى الأَقَلِّ – اعتَقَدَ ذلِكَ . ولَمْ يَكُنْ أَحَـدٌ مُوقِنًا بِـهِ ؛ لِأَنَّهـا لَمْ يَدُرْ حَوْلَها أَيُّ إِنْسانٍ ؛ ولكِنَّ كولمبُسَ ظَنَّ أَنَّـهُ إِذا أَبْحَرَ غَرْبًا وَصَلَ إِلَى اليـابانِ ، الـتي وَصَلَ إِلَيْها مُكتَشِفُونَ آخَرُونَ بالسَّفَرِ شَرْقًا في البَرِّ والبَحْرِ .

لَمْ تَكُنْ لَدَى أَحَدٍ أَيَّةُ فِكْرَةٍ عَنْ وُجُودِ قارَّةٍ كَبِيرَةٍ بَيْنَهما . ولكِنَّ النّاسَ عَرَفُوا أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ وُجُودِ أَرْضٍ في الجِهَةِ الغَرْبِيَّةِ ، تَدُلُّ عَلَيْها الأَشْياءُ الغَرِيبَةُ ، الَّتي كانَتْ تُلْقَى عَلَى شَواطِىءِ مادَيْرا وبورتو سانتو عِنْدَ هُبُوبِ الرِّيحِ الغَرْبِيَّةِ .

كانَ كولمبُسُ يَقْضِي كَثِيرًا مِنْ وَقْتِهِ في التَّحَدُّثِ إِلَى البَحّارَةِ في المَرْفَأِ ، حَيْثُ أَرَوْهُ قِطَعًا غَرِيبَةً مِنَ الخَشَبِ المَحْفُورِ والقَصَباتِ الضَّخْمَةِ ، الَّتي يَتَّسِعُ كُلُّ مَقْطَعٍ مِنْها لِغالُونٍ (نَحْو ٢ /١ ٤ لِيترات) مِنَ الماءِ .

لَمْ يَرَ أَحَدٌ مِثْلَ تِلْكَ الأَشْياءِ مِنْ قَبْلُ ، لِذا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَتَتْ مِنْ أَرْضٍ مَجْهُولَةٍ عَبْرَ البَحْرِ .



قَرَّرَ كولمْبُسُ الإبْحارَ غَرْبًا بَحْثًا عَنْها . ولكِنَّهُ كانَ رَجُلًا فَقيرًا ، ويَحْتاجُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إلَى شَخْصٍ يُزَوِّدُهُ بِسَفينَةٍ .

فَطَلَبَ مِنْ مَلِكِ البُرْتُغالِ تَزْويدَهُ بِها . فأَصْغَى المَلِكُ بِعنايَةٍ إلَى ما كانَ كولمْبُسُ يُريـدُ قَوْلَهُ ، ولكِنَّـهُ رَفَضَ مُساعَدَتَـهُ . ولكِنَّهُ ، دُونَ أَنْ يُخْبِرَ كولمْبُسَ ، أَرْسَلَ سَفينَةً مَمْلُوءَةً بِبَحّارَتِهِ ، لِكَيْ يَجِدُوا الأَرْضَ الغَنِيَّةَ ، الَّتي تَحَدَّثَ عَنْها كولمْبُسُ ، ويُطالِبُوا بِها .

كانَ هذا العَمَلُ الَّذي قـامَ بِهِ مَلِكُ البُرْتُغالِ عَمَلًا دَنيئًا جِدًّا ، ولكِنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِفائِدَةٍ ؛ لِأَنَّ بَحّارَتَهُ ، بَعْدَ أَنْ قَضَوْا بِضْعَةَ أَيّامٍ في البَحْرِ ، جَبُنُوا وعادُوا .

فعِنْدَما سَمِعَ كولمْبُسُ أَنَّ المَلِكَ قَدْ خَدَعَهُ ، تَرَكَ البرتغالَ وذَهَبَ إلَى إسبانيا .

لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَى رَجُلٍ فَقيرٍ الفَوْزُ بِمُقابَلَةِ مَلِكِ إسـبانيـا ومَلِكَتِها . اِنْتَظَرَ كولمْبُسُ عامَيْنِ ، ثُمَّ سُمِحَ لَـهُ بالـدُّخُولِ إلَى البَلاطِ ، فَدَخَـلَ وأَمَلُهُ كَبيرٌ في أَنَّ بَحْثَهُ عَنْ سَفينَةٍ قَد أَثْمَرَ .



كانَ مُخْطِئًا ، لِأَنَّ مَلِكَ إِسْبانيا كانَ في ذلِكَ الوَقْتِ يُحارِبُ المَغارِبَةَ ، الّذينَ كانُوا قَدِ احْتَلُّوا بِلادَهُ . ومَعَ أَنَّهُ رَحَّبَ تَرْحيبًا حَسَنًا بكولمْبُسَ ، حينَ زارَهُ ، إلا أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ سِوَى تَأْليفِ لَجْنَةٍ ، لِكَيْ تُشيرَ عَلَيْهِ بِمُساعَدَةِ كولمبسَ أَوْ عَدَمِ مَساعَدَتِهِ .

كانَتْ تِلْكَ اللَّجْنَةُ مُؤَلَّفَةً مِنْ نُبَلاءَ إسبانِيّينَ وكُهّانٍ . وقَدْ ظَلَّ كولمْبُسُ يُناقِشُهُمْ أَيّامًا وأَسابيعَ ، ويَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ في إسبانيا إلى بَلَدٍ آخَرَ ، عِنْدَما تَنْتَقِلُ اللَّجْنَةُ إِلَيْهِ .

لَمْ تَكُنِ اللَّجْنَةُ في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِها . وبَعْضُ أَعْضائِها أَبَوْا أَنْ يُصَدِّقُوا أَنَّ الأَرْضَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ كُرَوِيَّةً . وقالَ الأَعْضاءُ الآخَرُونَ : « إذا كانَتِ الأَرْضُ كُرَوِيَّةً ، فإِنَّ كولمْبُسَ سَيُبْحِرُ نُزولًا ، وما دامَ مِنَ المُسْتَحيلِ عَلَى السَّفينَةِ أَنْ تُبْحِرَ صُعُودًا ، فإِنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ أَبَدًا . »

ولَمْ تُعْطِ اللَّجْنَةُ قَرارَها إلا بَعْدَ مُرُورِ أَرْبَعِ سَنَواتٍ طويلَةٍ . وقَدْ جاءَ في ذلِكَ القَرارِ المُرْسَلِ إلى المَلِكِ ، أَنَّ الرِّحْلَةَ الّتي اقْتَرَحَها كولمْبُسُ كانَتْ عَبَثًا وغَيْرَ عَمَلِيَّةٍ .



لَمْ يُضِعْ كولمْبُسُ وَقْتَهُ عَبَثًا خِلالَ تِلْكَ السَّنواتِ الأَرْبَعِ . ولا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ رَأَى كَيْفَ تَسيرُ الأُمورُ ، فَقَرَّرَ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ وَسيلَةٍ ، يَفُوزُ بِها بِسَفينَةٍ مِنْ مَكانٍ آخَرَ .

كانَ مَلِكُ البرتُغالِ قَـدْ رَفَضَ مُساعَدَتَهُ ، وكانَتْ لَجْنَةُ مَلِكِ إِسبانيا تَضَعُ في طَريقِهِ جَميعَ العَراقيلِ . ولَمْ تَكُنْ إِسبانيا والبُرتُغالُ هُما البَلَدَيْنِ الوَحيدَيْنِ ، اللَّذَيْنِ لَهُما سُفُنٌ وبَحّارَةٌ أَقْوياءُ .

كانَ لِكولمْبُسَ أَخٌ اسْمُهُ بارثولوميو ، الَّذي اتَّفَقَ مَعَ أَخيهِ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ هُوَ إِلَى إِنْكِلترا طالِبًا مُساعَدَتَها ، بَيْنَما يَبْقَى كريستوفَرُ في إِسبانيا لِمُناقَشَةِ اللَّجْنَةِ .

كانَ قَدْ مَضَى عَلَى ارْتِقاءِ هنري السّابِـعِ ، أَوَّلِ مُلُوكِ إِنْـكِلترا التّيودوريّـين ، ثَلاثَـةُ أَعْوامٍ . كانَ رَجُـلًا حَذِرًا ، وحَريصًا عَلَى المالِ ، ومَعَ أَنَّهُ اسْتَقْبَلَ بارثولوميو ، وأَصْغَى إِلَيْهِ مُدَّةً طَويلَةً ، فَقَـدْ رَفَضَ البَحْثَ عَنْ سُفُنٍ لِلرِّحْلَةِ ، الَّتي رَأَى أَنَّهـا رِحْلَةٌ لا تُبَشِّرُ بالنَّجاحِ .

ولَوْ كانَ هنري السّابِعُ أَقَلَّ حَذَرًا ، لَكانَتْ أَميرِكا الجَنُوبِيَّةُ قَـدْ أَصْبَحَتْ مُسْتَعْمَرَةً إِنْكِليزِيَّةً .



أَخْبَرَ بارثولوميو أَخاه كولُمْبُسَ بِخَيْبَةِ مَسْعاهُ ، ثُمَّ عَبَرَ البَحْرَ إِلَى فَرَنْسا ، لِيَطْلُبَ المُساعَدَةَ مِنْ شارلَ السَّابِعِ . وهُناكَ رُفِضَ طَلَبُهُ أَيْضًا .

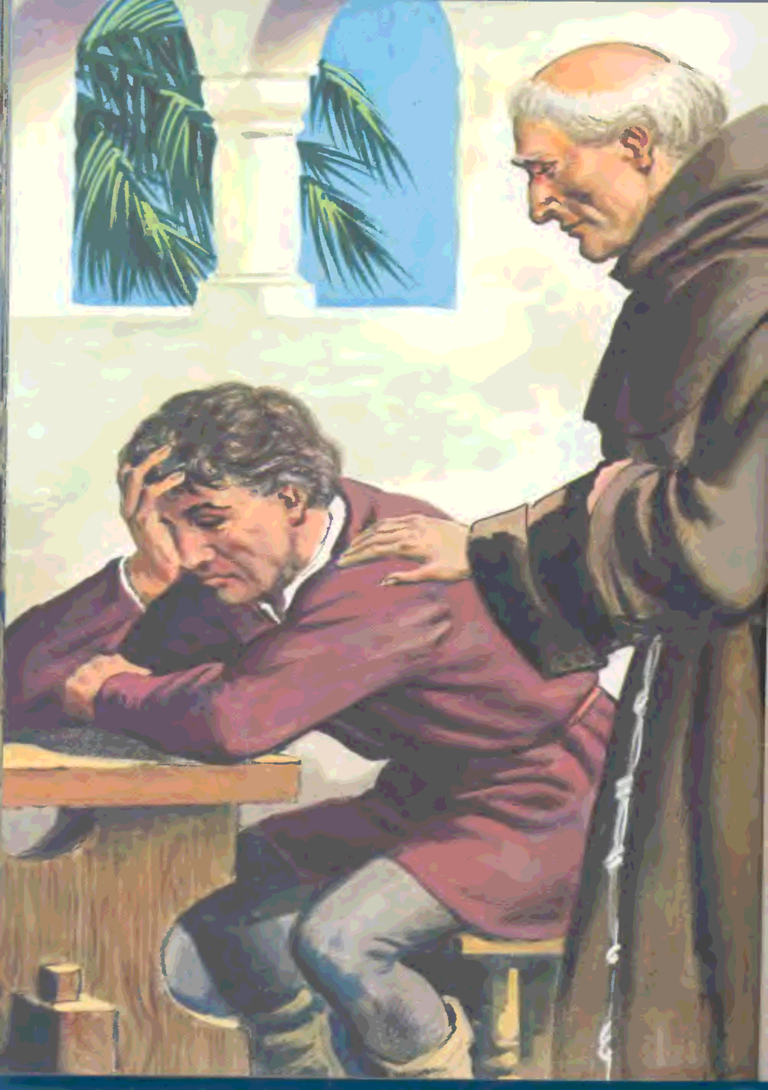
أَمَّا في إِسبانيا فقَدْ كانَ كولمْبُسُ نَفْسُهُ يائِسًا ؛ لِأَنَّ اللَّجْنَةَ الثَّانِيَةَ الَّتي عَيَّنَها المَلِكُ أَيَّدَتْ قَرارَ الرَّفْضِ الَّذي أَصْدَرَتْهُ اللَّجْنَةُ الأُولَى . حَدَثَ ذلِكَ في عامِ ١٤٩١ .

ولَمَّا اعْتَقَدَ كولمْبُسُ أَنْ لا أَمَلَ لَهُ في الحُصُولِ عَلَى المُساعَدَةِ مِنْ إِسبانيا ، سافَرَ إِلَى فَرَنْسا لِيَنْضَمَّ إِلَى أَخيهِ . وفي الطَّريقِ اسْتَراحَ في دَيْرٍ قُرْبَ بالوس ، حَيْثُ كانَ استُقْبِلَ بِتَرْحابٍ مُنْذُ بِضْعِ سَنَواتٍ . وقَدْ ظَهَرَ أَنَّ مُكُوثَهُ في دَيْرِ لا رابيدا كانَ نُقْطَةَ التَّحَوُّلِ في حَظِّهِ .

كانَ في ذلِكَ الدَّيْرِ راهِبٌ اسْمُهُ جوانُ بيريزُ ، وَكانَ قِسِّيسًا خاصًّا لِمَلِكَةِ إِسبانيا . لَقَدْ آمَنَ بِأَقْوالِ كولمْبُسَ ، وقَبِلَ أَنْ يَكْتُبَ رِسالَةً إِلَى المَلِكَةِ ، ويَطْلُبَ مُساعَدَتَها .

فَنَتَجَ عَنْ ذلِكَ ما لَمْ يَكُنْ في حُسْبانِ كولمْبُسَ ؛ إِذْ أَرْسَلَتِ المَلِكَةُ لَهُ مَبْلَغًا مِنَ المالِ ، لِكَيْ يَشْتَرِيَ بِهِ ثِيابًا فاخِرَةً وجَوادًا ، ويَأْتِيَ فَوْرًا لِرُؤْيَتِها .

أَصْبَحَ الأَمْرُ الآنَ لا يَحْتاجُ إِلَى اللِّجانِ .



اِستَقْبَلَتِ المَلِكَةُ إيزابيلُ كولُمبُسَ وَحْدَها ، وأَظْهَرَتِ اهتِمامًا شَديدًا بِخُطَطِهِ . ثُمَّ ٱستُقْبِلَ في البَلاطِ المَلَكِيِّ ، وظَهَرَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَسيرُ لِمَصْلَحَتِهِ .

وُعِدَ كولُمبُسُ بِسُفُنٍ لِلْقِيامِ بِمُغامَرَتِهِ . ثُمَّ فَجَّرَ ٱستِياءَهُ مِنَ الاَنْتِظارِ الَّذي دامَ سَبْعَ سَنَواتٍ ، بِأَنْ طَلَبَ مُكافَآتٍ مِنَ المَلِكِ والمَلِكَةِ ، اللَّذَيْنِ ٱعتَبَراها غَيْرَ مَعْقُولَةٍ أَبَدًا . ومِنْ بَيْنِها وُجُوبُ تَرْقِيَتِهِ فَوْرًا إِلَى رُتْبَةِ أَميرِ البَحْرِ (أَميرال) ، وإِعْطاؤُهُ عُشْرَ الثَّرْوَةِ الَّتي سَتُجْنَى مِنَ الأَراضي الَّتي سَيَكْتَشِفُها .

رُفِضَتْ شُرُوطُهُ ، فَٱنْطَلَقَ في الحالِ ، مَرَّةً ثانِيَةً لِلاَنْضِمامِ إِلَى أَخيهِ في فَرَنْسا . وما كادَ يَسيرُ سِتَّةَ أَميالٍ ، حَتَّى أَدْرَكَهُ رَسُولُ المَلِكِ . لَقَدْ قُبِلَتْ شُروطُهُ .

فَأَدارَ كولُمبُسُ رَأْسَ جَوادِهِ ثانِيَةً شَطْرَ البَلاطِ المَلَكِيِّ . وأَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ الآنَ مُهَيَّأً لِلرِّحْلَةِ البَحْرِيَّةِ ، الَّتي فاقَتْ بِنَتائِجِها الباهِرَةِ كُلَّ ما أَنْجَزَهُ أَيُّ إِنْسانٍ .



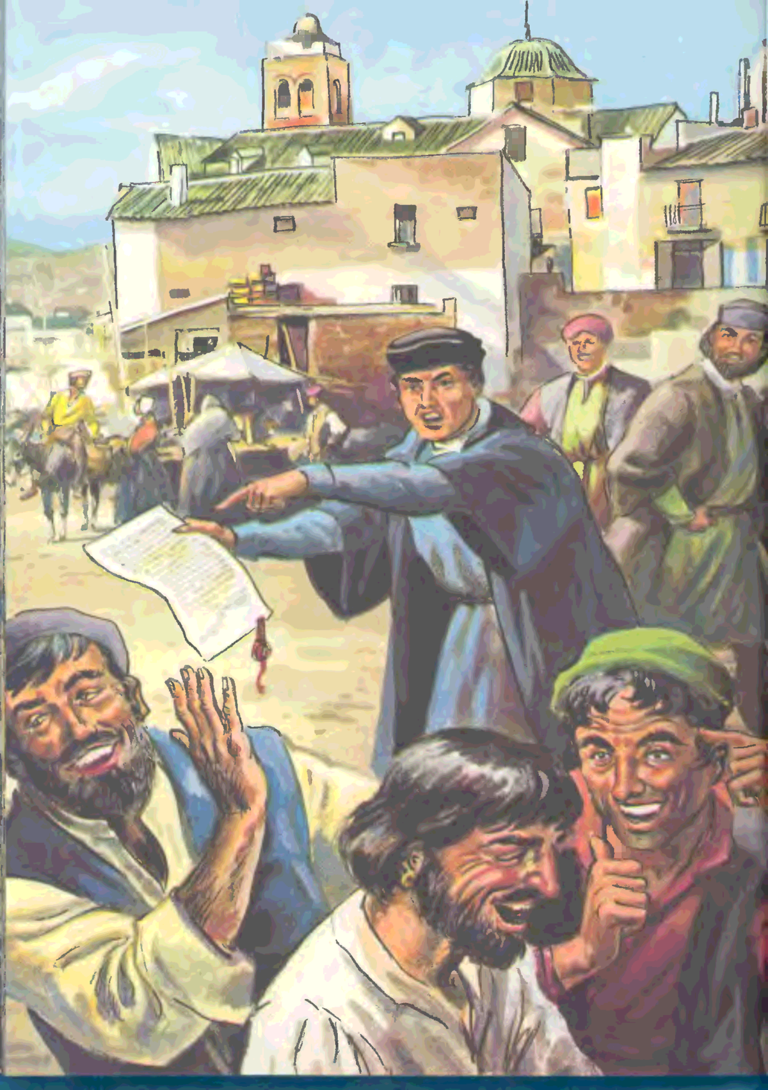
أَيْقَنَ كُولُمْبُسُ الآنَ أَنَّهُ سَيَحْصُلُ عَلَى السُّفُنِ الَّتي طَلَبَها ، ولكِنْ دُونَ أَنْ يُكَلِّفَ ذلِكَ مَلِكَ إِسبانيا ومَلِكَتَها شَيْئًا .

كانَ سُكّانُ مَرْفَإِ بالوسَ يَرْزَحُونَ تَحْتَ الغَضَبِ المَلَكِيِّ ، لِعَدَمِ دَفْعِهِمُ الضَّرائِبَ ، فَفُرِضَتْ عَلَيْهِمُ الغَراماتُ المالِيَّةُ الباهِظَةُ . وكانَتِ العادَةُ في إِسبانيا ، في ذلِكَ الوَقْتِ ، أَنْ تُفْرَضَ العُقُوبَةُ ، في مِثْلِ تِلْكَ الظُّرُوفِ ، عَلَى البَلْدَةِ كُلِّها ، لا عَلَى الأَفْرادِ . لِذا فُرِضَ عَلَى بالوسَ أَنْ تُزَوِّدَ كولُمْبُسَ بِثَلاثِ سُفُنٍ ، وأَنْ تُمِدَّها بالرِّجالِ عَلَى نَفَقَتِها أَيْضًا .

كانَتْ بالُوسُ بَعيدَةً جِدًّا عَنِ البَلاطِ المَلَكِيِّ ، والبَلْدَةُ الَّتي رَفَضَتْ أَنْ تَدْفَعَ الضَّرائِبَ ، قادِرَةٌ أَيْضًا عَلَى رَفْضِ الأَمْرِ الصّادِرِ لَها بِأَنْ تَجِدَ السُّفُنَ . كانَ ٱحْتِجاجُ كولُمْبُسَ وغَضَبُهُ عَلَيْهِمْ دُونَ فائِدَةٍ . وعِنْدَما أَبْرَزَ لَهُمُ الرَّقَّ (جِلْد رقيق يُكْتَبُ فيهِ) ، الَّذي كُتِبَتْ عَلَيْهِ أَوامِرُ المَلِكِ هَزَأُوا بِهِ .

ومَعَ أَنَّ السُّفُنَ الَّتي في المَرْفَإِ كانَتْ كَثيرَةً ، فقَدْ زَعَمُوا أَنَّها لَيْسَ بَيْنَها سَفينَةٌ واحِدَةٌ صالِحَةٌ لِمِثْلِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ المَجْنُونَةِ إِلَى المَجْهُولِ .

بالرَّغْمِ مِنْ جَميعِ الصُّعُوباتِ الَّتي تَغَلَّبَ كولُمْبُسُ عَلَيْها ، والسَّنَواتِ الطَّويلَةِ الَّتي ٱنْتَظَرَ فِيها ، ظَهَرَ لَهُ أَنَّ تَحْقيقَ رَغْبَتِهِ لا يَزالُ بَعيدًا جِدًّا .



ثُمَّ حالَفَ الحَظُّ كولُبُسَ ، بَعْدَما أَصْبَحَتْ آمالُهُ تَلْفِظُ أَنْفاسَها الأَخيرَةَ .

كان قَدْ تَعَرَّفَ فِي بالوسَ إِلَى رُبّانَيْنِ شَقيقَيْنِ ، كانَتْ أَهَمِيَّتُهُمـا الكُبْرَى في أَنَّهُما يَمْلِكانِ سُفُنًا ، وآسْماهُما مارتِن آلونزو بِنْزُونُ وفيسنت يانِز بِنْزونُ .

وأَخيرًا حَصَلَ عَلَى ثَلاثِ سُفُنٍ صَغيرَةٍ بِمُساعَدَتِهِما . وكـانَتْ أَسْماؤُها : « سانْتا مارِيّا » وهِيَ أَكْبَرُ الثَّلاثِ ، و « بِنْتا » ، وَ « نينا » . لَقَدْ قُدِّرَ لِهذِهِ السُّفُنِ الثَّلاثِ أَنْ تُصْبِحَ أَكْثَرَ السُّفُنِ شُهْرَةً في تاريخِ البَحْرِ .

كانَتْ سُفُنًا صَغيرَةً جِدًّا . ولَمْ يَكُنْ ظَهْرُ السَّفينَةِ « سانتا مارِيّا » يَزيدُ طُولُهُ عَنْ سَبْعينَ قَـدَمًا . ولَمْ يَكُنْ حَجْمُ « بِنْتا » إِلا مِقْدارَ نِصْفِ حَجْمِ « سانتا مارِيّا » ، أَمّا « نينا » فكانَتْ أَصْغَرَ الثَّلاثِ ، ولَيْسَ فيها سِوَى ١٨ بَحّارًا .

كانَ على كولُمْبُسَ أَنْ يُبْحِرَ ، بِتِلْكَ السُّفُنِ الصَّغيرَةِ جِدًّا ، في بِحارٍ شَديدَةِ العَواصِفِ ، ومُجْهُولَةٍ لَمْ يَجْتَزْها أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ ، ولَمْ يَتَوَقَّعِ العَوْدَةَ مِنْها بِسَلامٍ إِلّا القَليلُونَ . ولَيْسَ مِمّا يُثيرُ الدَّهْشَةَ أَنَّهُ – بَعْدَ أَنْ حَصَلَ عَلَى السُّفُنِ – وَجَدَ صُعُوبَةً في إِقْناعِ الرِّجالِ بالإِبْحارِ فِيها .



لَوْلا مُساعَدَةُ الأَخَوَيْنِ بِنزونَ لَكانَ القِيامُ بالرِّحْلَةِ مُسْتَحِيلًا جِدًّا . لَقَدْ شَجَّعا بَحّارَةَ بالوسَ المُتَرَدِّدِينَ بالقَوْلِ والفِعْلِ مَعًا . وقَدْ عَرَضَ كِلاهُما نَفْسَهُ عَلَى كولُمْبُسَ لِلإِبحـارِ غَرْبًا نَحْوَ المَجْهُولِ .

كانَ كولُمْبُسُ مُسْتَعِدًّا لِتَجْنِيدِ بَحّارَتِهِ مِنْ بَيْنِ المُجْرِمِينَ المَوْجُودِينَ في سُجُونِ إسبانيا ، وقَدْ فازَ بِوَعْدٍ مِنَ المَلِكِ بإعْطاءِ كُلِّ سَجِينٍ الحُرِّيَّةَ المُطْلَقَةَ إذا أَبْحَرَ مَعَهُ . ولِحُسْنِ حَظِّهِ لَمْ يَكُنْ ذلكَ ضَرُورِيًّا .

لَمْ يَكُنْ تَجْميعُ البَحّارَةِ سَهْلًا . وكانَ العَدَدُ المَطْلُوبُ لِلسُّفُنِ الثَّلاثِ تِسْعِينَ بَحّارًا . كانَ النّاسُ في ذلِكَ العَصْرِ مُتَدَيِّنِينَ جِدًّا ، لَيْسَ في إسبانيا وَحْدَها ، بَلْ في جَميعِ أَنْحاءِ العالَمِ ، وقَدْ ظَنَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّ المُغامَرَةَ لِدُخُولِ المَجْهُولِ عَمَلٌ شِرِّيرٌ . وبَعْضُهُمْ خافُوا الأَخْطارَ الَّتي اخْتَرَعَهـا خَيالُهُمْ ، كالوُحُوشِ البَحْرِيَّةِ الهـائِلَةِ الحَجْمِ ، ودَوّاماتِ المُحيطِ الغامِضَةِ .

ولكِنَّهُمْ ، في النِّهايَةِ ، لَمْ يَتَغَلَّبْ عَلَى مَخاوِفِهِمْ سِوَى الأَمَـلِ في الحُصُولِ عَلَى الجَوائِزِ الكَبِيرَةِ السَّخِيَّـةِ ، وسِوَى المَثَلِ الرّائِـعِ ، الَّذي ضَرَبَهُ لَهُمْ الرُّبّانانِ اللَّذانِ كانا أَكْثَرَ رَبابِنَةِ البَحْرِ احْتِرامًـا في البَلْدَةِ .



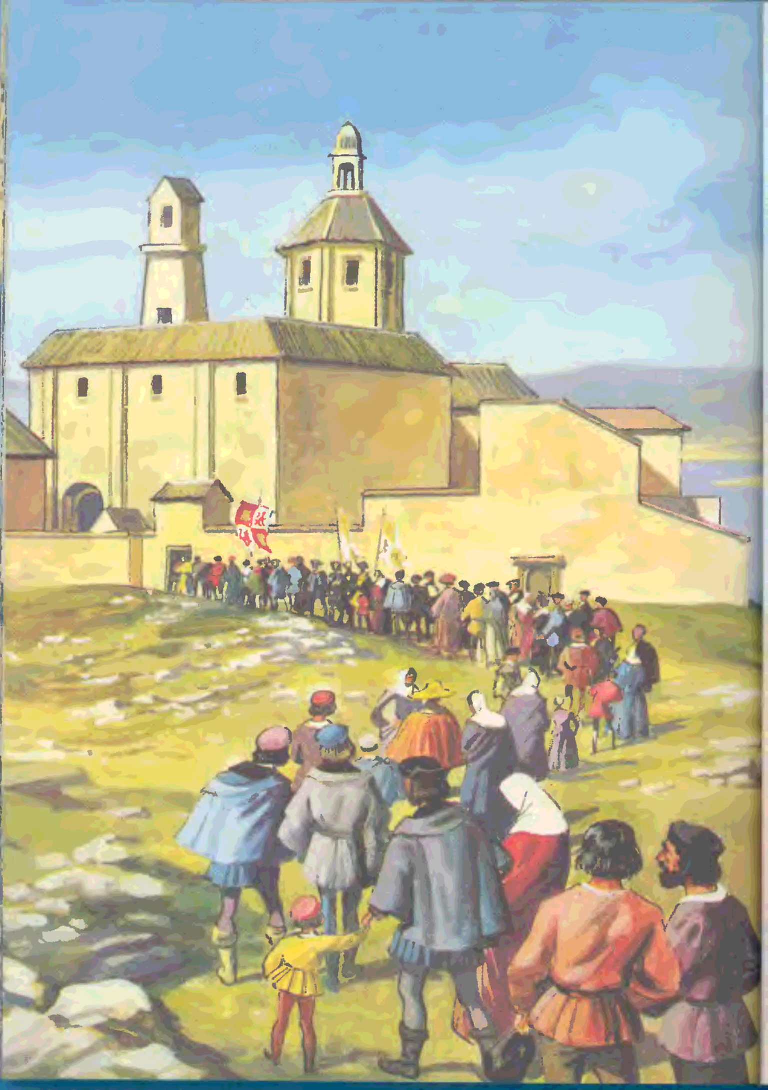
أَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ جاهِزًا بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، وحَمَلَتِ السُّفُنُ الثَّلاثُ مِنَ الطَّعامِ والمؤونَةِ ما يَكْفيها عامًا .

كانَتْ حِصَّةُ البَحّارِ الغِذائيَّةُ اليَوْمِيَّةُ نَحْوَ نِصْفِ كيلوغرامٍ مِنَ البَسْكوتِ ، وثَلاثَمِئَةِ غرامٍ مِنَ اللَّحْمِ . ويُرْوَى أَنَّ السُّفُنَ كانَتْ تَخْتَزِنُ أَيْضًا كَمِّيّاتٍ كَبيرَةً مِنَ البَصَلِ ، والجُبْنِ ، والزَّيْتِ ، والخلِّ ، وَهِيَ مَوادُّ لا غِنَى عَنْها في البَحْرِ .

وعِنْدَما نُضِيفُ إِلَى ذلِكَ ما كانَتْ تَحْمِلُهُ السُّفُنُ مِنَ الأَشْرِعَةِ ، والحِبالِ ، والقَذائِفِ الحَجَرِيَّةِ لِلْمَدافِعِ ، الّتي كانَتِ السُّفُنُ تَتَسَلَّحُ بِها آنَذاكَ ، يَبْدُو لَنا أَنَّ تِلْكَ السُّفُنَ الصَّغيرَةَ كانَتْ مُحَمَّلَةً بِأَقْصَى ما لَدَيْها مِنْ طاقَةٍ .

لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِمْ سِوَى شَيْءٍ واحِدٍ ، يَجِبُ أَنْ يَقُومُوا بِهِ قَبْلَ الإِبْحارِ ، هُوَ أَنَّهُمْ يَجِبُ أَنْ يُصَلُّوا لِلهِ جَميعًا ، بَحّارَةً ، ورِجالَ بالوسَ ونِساءَها . لِذا سارُوا جَميعًا في مَوْكِبٍ إِلَى ديرِ لا رابيدا ، لِيَسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُبارِكَهُمْ في مَشْرُوعِهِمْ .

كانَ ذلِكَ الدَّيْرُ هُوَ المَكانَ الّذي تَسَلَّمَ فِيهِ كولمْبُسُ رِسالَةَ المَلِكَةِ ، وكانَ الرّاهِبُ الصّالِحُ جوانُ بيريزُ ، الّذي كَتَبَ لِلْمَلِكَةِ بِشَأْنِ الرِّحْلَةِ ، هُوَ الّذي بارَكَ كولمبُسَ ورِجالَهُ .



أَصْدَرَ كولمْبُسُ الأَمْرَ بِرَفْعِ الأَشْرِعَةِ ، يَوْمَ الجُمُعَةِ ، في الثّالِثِ مِنْ شَهْرِ آبَ ، مِنْ عام ١٤٩٢ ، قَبْلَ نِصْفِ ساعَةٍ مِنْ شُرُوقِ الشَّمْسِ .

وعِنْدَما ظَهَرَ النُّورُ كانَتِ الأَشْرِعَةُ قَدِ امْتَلأَتْ ، ثُمَّ ابْتَعَدَتِ السُّفُنُ الثَّلاثُ الصَّغيرَةُ عَنْ رَصِيفِ الميناءِ . لَقَدْ بَدَأَتْ رِحْلَةٌ بَحْرِيَّةٌ مِنْ أَكْثَرِ الرِّحْلاتِ في التّاريخِ أَهَمِّيَّةً .

كانَ البَحّارَةُ عَلَى ظَهْرِ السُّفُنِ مَشْغُولِينَ جِدًّا في تَثْبِيتِ الأَشْرِعَةِ ، ولَفِّ الحِبالِ ، وتَوْدِيعِ الحُشُودِ الكَبِيرَةِ الَّتي تَجَمَّعَتْ لِتَوْدِيعِهِمْ . وكانَتِ الزَّوْجاتُ والأُمَّهاتُ يَبْكِينَ ويُصَلِّينَ ، أَمّا الرِّجالُ فإِنَّهُمْ كانُوا يَخْشَوْنَ أَنْ يَكُونَ وَداعُهُمْ لِلْبَحّارَةِ آخِرَ عَهْدِهِمْ بِهِمْ ، وأَنْ تَكُونَ تِلْكَ النَّظْرَةُ هِيَ آخِرَ نَظْرَةٍ يُلْقُونَها عَلَيْهِمْ . فهذِهِ الرِّحْلَةُ البَحْرِيَّةُ لَمْ تَكُنْ عادِيَّةً كتِلْكَ الرِّحْلاتِ الَّتي تُبْحِرُ فِيها السُّفُنُ مِنْ مَرْفَأٍ إِلَى آخَرَ مُحاذِيَةً للشّاطِئِ . لَقَدْ نَظَرَ جَمِيعُ المُوَدِّعِينَ إِلَى بَحّارَةِ « سانْتا مارِيّا » و « بِنْتا » و « نينا » في ذلِكَ الوَقْتِ ، كما كُنّا نَنْظُرُ إِلَى رِجالِ الفَضاءِ الأُوَلِ حِينَ انطَلَقوا إِلَى القَمَرِ ، في رِحْلَتِهِمُ الأُولَى . ورِحْلَةُ البَحّارَةِ كانَتْ أَشَدَّ خَطَرًا ؛ لِأَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّ القَمَرَ الَّذي تَنْطَلِقُ إِلَيْهِ المَرْكَبَةُ الفَضائِيَّةُ مَوْجُودٌ .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مُوقِنًا بِنَجاحِ الرِّحْلَةِ ، وسَعيدًا بانْطِلاقِ السُّفُنِ ، واقْتِحامِها البِحارَ المَجْهُولَةَ ، سِوَى كريستوفَر كولمْبُسَ ، الَّذي أَصْبَحَ السَّيِّدَ المُطْلَقَ الآنَ ، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ إِيقافَهُ .



رُبَّما ظَنَّ كولُمبُسُ ، عِنْدَما أَبْحَرَ مِنْ بالوسَ ، أَنَّ مَصاعِبَهُ قَـدِ انْتَهَتْ . ولَمْ تَكُنْ تِلْكَ هِيَ المَرَّةَ الأُوْلَى الَّتِي يُخْطِئُ فيها ظَنُّهُ .

سارَتِ الأُمُورُ في الأَيامِ الثَّلاثَةِ الأُوْلَى عَلَى ما يُرامُ . كانُوا مُتَّجِهِينَ شَطْرَ جُزُرِ الكَناري ، وَهِيَ أَبْعَدُ جُزُرٍ مَعْروفَةٍ غَرْبًا ، حَيْثُ قَرَّرَ كولُمبُسُ الانْطِلاقَ إِلَى المَجْهُولِ مِنْها . وقَدْ كانَتْ « بِنْتا » أَسْرَعَ السُّفُنِ الثَّلاثِ ، فَسَبَقَتْها مَسافَةً كَبِيرَةً ، وأَشْرِعَتُها البَيْضاءُ تَظْهَرُ وتَخْتَفِي في الأُفُقِ الأَزْرَقِ الرَّمادِيِّ .

ثُمَّ وَقَفَ كولُمبُسُ فَجْأَةً ، بَيْنَما كانَ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ « سانْتا مارِيّا » . لَقَدْ أُصِيبَتِ السَّفِينَةُ « بِنْتا » بِضَرَرٍ ، فَأُنْزِلَتْ أَشْرِعَتُها ، وسَقَطَتْ في أَوْدِيَةِ الأَمْواجِ دُونَ أَنْ تَجِدَ لَها مَخْرَجًا مِنْها . فانْدَفَعَتْ « سانْتا مارِيّا » نَحْوَها ، فبَلَغَتْها بِسُرْعَةٍ ، وعَرَفَ كولُمبُسُ أَنَّ جُزْءًا مِنَ الدَّفَّةِ قَدْ فُصِلَ عَنْها ، وأَنَّهُمْ يَحْتاجُونَ إِلَى مُدَّةٍ ما لِإِصْلاحِها .

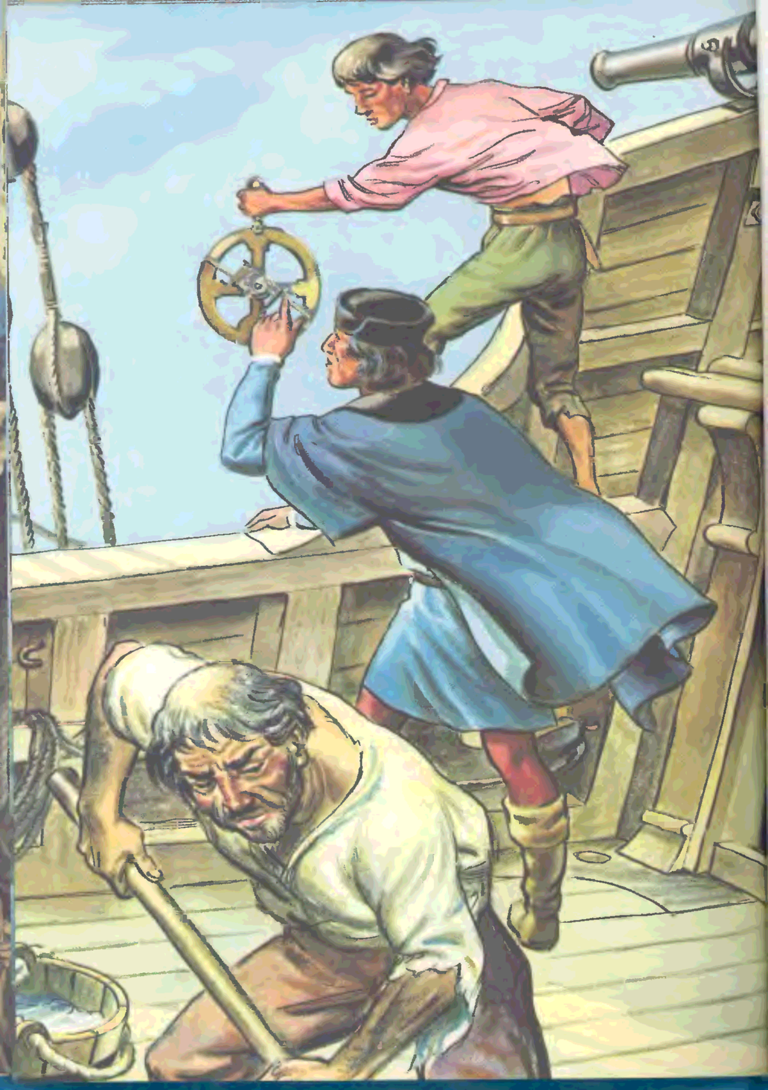
قَلِقَ كولُمبُسُ قَلَقًا عَظِيمًا ، لَمْ تَكُنِ الكارِثَةُ الَّتِي حَلَّتْ بِدَفَّةِ « بِنتا » سَبَبَهُ ؛ بَلْ خَوْفُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ البَحّارَةُ قَدْ تَعَمَّدُوا تَعْطِيلَ السَّفِينَةِ ؛ لِأَنَّ شَجاعَتَهُمْ خانَتْهُمْ ، فَأَمَّلُوا أَنْ تَقْضِي الضَّرورةُ بِرُجوعِ « بِنْتا » إِلَى بالوس لِإِصْلاحِ دَفَّتِها .



إذا كانَتِ المحاوَلَةُ مُتعَمَّدَةً ، فإنَّها لَمْ تَنْجَحْ . إنَّ كولمُبس قَدْ تَغَلَّبَ عَلَى صُعُوباتٍ كَثيرَةٍ جِدًّا ، ولَيْسَ مِنَ المَعْقُولِ أَنْ تُحَوِّلَهُ عَنْ هَدَفِهِ دَفَّـةٌ مَكْسُورَةٌ . ثُمَّ واصَلُوا الرِّحْلَةَ إلى ماديْرا وجُزُرِ الكناري ، حَيْثُ قَضَوْا شَهْرًا كامِلًا في إِصْلاحِ « بِنْتا » ، وتَغْييرِ طَريقَةِ وَضْعِ أَشْرِعَةِ السَّفينَةِ « نينا » . وظَلُّوا هُناكَ حَتَّى اليَوْمِ السَّادِسِ مِنْ أَيلولَ ، عِنْدَما ارْتَفَعَ شِراعُ « سانْتا مارِيّا » الأَكْبَرُ ، وانطَلَقُوا في رِحْلَتِهِمْ نَحْوَ الغَرْبِ .

مِنْ حُسْنِ حَظِّنا أَنَّ لَدَيْنا يَوْمِيَّاتِ كولمُبسَ عَنِ الرِّحْلَةِ ، وهِيَ اليَوْمِيَّاتُ الَّتي تَحْتَفِظُ بِها كُلُّ سَفينَةٍ تَمْخُرُ البِحارَ . لَقَدْ ظَلُّوا أُسْبوعًا يُحالِفُهُمُ التَّوْفيقُ التَّامُّ ، وكانَ كولمُبسُ يُعَيِّنُ مَوْقِعَ السَّفينَةِ عَلَى خارِطَتِهِ ، ويَعْرِفُ المَسافَةَ الَّتي قَطَعُوها .

بَدَأَ كولمُبسُ يَحْتَفِظُ بِدَفْتَرَيْنِ لِيَوْمِيَّاتِهِ ، سَجَّلَ في أَحَدِهِما عَـدَدَ الفَراسِخِ (الفرسخ نحو ثَلاثَةِ أَمْيالٍ) الحَقيقِيَّ ، الَّذي يَقْطَعُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وسَجَّلَ في ثانيهِما ، الَّذي كانَ يُريهِ لِلْبَحَّارَةِ ، عَدَدًا أَقَلَّ . إِذْ إِنَّ كولمُبسَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَعْرِفَ بَحَّارَتُهُ حَقيقَةَ المَسافَةِ الَّتي تَفْصِلُهُمْ عَنْ إسبانيا ، لِئَلَّا يَخافُوا ويَرْغَبُوا في العَوْدَةِ .

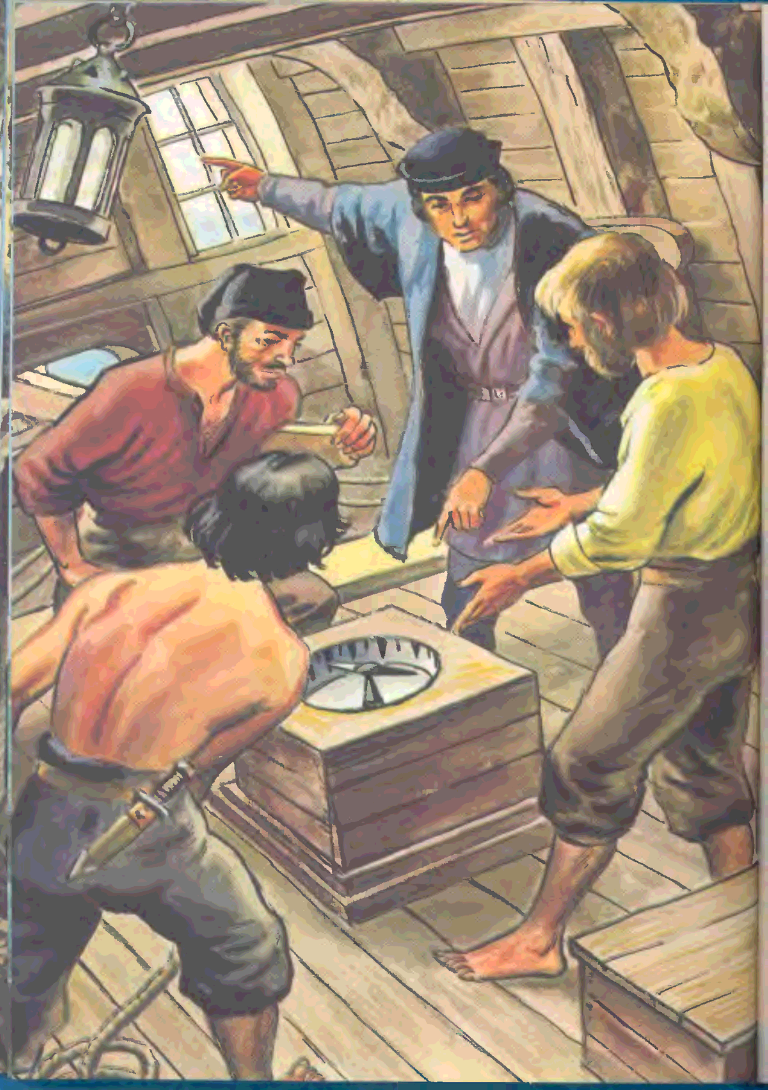


لاحَظَ كولمُبسُ ، بَعْدَ سَبْعَةِ أَيّامٍ مِنْ مُغادَرَتِهِمْ جُزُرَ الكناري ، أَنَّ بُوصْلَةَ السَّفينَةِ كانَتْ تَتَحَرَّكُ بِشَكْلٍ غَريبٍ . فإبْرَتُها ، عِوَضًا عَنْ أَنْ تَتَّجِهَ شَطْرَ النَّجْمِ الشَّماليِّ ، آنْحَرَفَتْ قَليلًا شَطْرَ الشَّمالِ الغَرْبِيِّ . فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا عَنْ ذلِكَ لِلْبَحّارَةِ ، ولكِنَّ الإِبْرَةَ راحَتْ تَنْحَرِفُ قَليلًا يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ .

وفي السّابعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ أَيْلُولَ ، كانَتِ الإِبْرَةُ قَدِ آنْحَرَفَتْ كَثيرًا جِدًّا عَنْ مَوْضِعِها العاديِّ ، بِحَيْثُ لاحَظَ مُديرُ قِيادِ السَّفينَةِ ذلِكَ . فَتَجَمَّعَ البَحّارَةُ بِسُرْعَةٍ حَوْلَ الإِبْرَةِ ، وقَدْ ذَكَرَ كولمُبسُ في كُنّاشَتِهِ (دفتَرِ يَوْمِيّاتِهِ) أَنَّهُمْ « خافُوا خَوْفًا شَديدًا . »

كانَ كولمُبسُ كالبَحّارَةِ يَجْهَلُ سَبَبَ انْحِرافِ البُوصلَةِ الشَّديدِ . ولكِنَّهُ كانَ الرُّبّانَ ، وعَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا يُطَمْئِنُ بِهِ رِجالَهُ . فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ سَبَبَ الأنْحِرافِ لَمْ يَكُنْ خَطأً مِنَ البُوصْلَةِ ، بَلْ كانَ سَبَبُهُ النَّجْمُ الشَّماليُّ ، الّذي كانَ يَتَحَرَّكُ بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ . فَصَدَّقَهُ البَحّارَةُ لِحُسْنِ الحَظِّ . وإِذا كانَ القَلَقُ قَدِ آسْتَوْلَى عَلَى كولمُبسَ ، كما هُوَ مُتَوَقَّعٌ ، فإِنَّهُ اسْتَطاعَ أَنْ يُخْفِيَهُ إِخْفاءً تامًّا .

نَحْنُ نَعْلَمُ اليَوْمَ أَنَّ الشَّمالَ المَغناطيسِيَّ ، الّذي تُشيرُ إِلَيْهِ البُوصلَةُ ، لَيْسَ هُوَ الشَّمالَ الحَقيقِيَّ ، ويَخْتَلِفُ اتِّجاهُهُ باخْتِلافِ الأَماكِنِ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ . كانَ كولمُبسُ يَجْهَلُ ذلِكَ .



رَضِيَ البَحّارَةُ بِما قالَهُ لَهُمْ كولمُبسُ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ . ولكِنَّهُمْ كانُوا يُعَبِّرُونَ عَنْ مَخاوِفِهِمْ ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، حَتَّى أَصْبَحَ قِسْمٌ مِنْهُمْ عَلَى وَشْكِ التَّمَرُّدِ . أَرادُوا أَنْ يُلْقُوا كولمُبسَ في البَحْرِ ، ويَعُودُوا إِلَى إِسبانيا .

لَقَدْ كانُوا جَمِيعًا يَبْحَثُونَ ، بِطَبِيعَةِ الحالِ ، عَنِ اليابِسَةِ غَرْبًا ؛ لِأَنَّ هُناكَ جائِزَةً كَبِيرَةً ، سَتُعْطَى لِأَوَّلِ رَجُلٍ يَرَى اليابِسَةَ . وفي مَساءِ أَحَدِ الأَيّامِ صاحَ أَحَدُ البَحّارَةِ قائِلًا إِنَّهُ رأَى اليابِسَةَ .

فَرَكَعَ كولمُبسُ وشَكَرَ اللهَ ، أَمّا بَحّارَةُ السُّفُنِ الثّلاثِ فقَدْ راحُوا يُرَتِّلُونَ تَرْتيلَةَ الحَمْدِ والشُّكْرِ . وظَلُّوا يَنْتَظِرُونَ بُزُوغَ الفَجْرِ بِقَلَقٍ شَديدٍ طُولَ اللَّيْلِ ، وعِنْدَما أَقْبَلَ الصَّباحُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَرْضٌ . لَقَدْ كانَ الّذي رآهُ البَحّارُ غَيْمَةً مُنْخَفِضَةً في الأُفُقِ .

جَعَلَتْ خَيْبَةُ الأَمَلِ هذِهِ البَحّارَةَ أَكثَرَ شَوْقًا إِلَى العَوْدَةِ إِلَى إِسبانيا ، ولكِنَّهُمْ – لِحُسْنِ الحَظِّ – شاهَدُوا طُيورًا في الأُفُقِ . فَعادَتْ صُدُورُ الرِّجالِ إِلَى الانْشِراحِ ؛ لِأَنَّ كولمُبسَ أَكَّدَ لَهُمْ أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ الطُّيورِ لا تَطيرُ أَبَدًا بَعيدًا عَنِ اليابِسَةِ .

ظَلَّ البَحْرُ عَلَى هُدُوئِهِ ، وعادَ البَحّارَةُ فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ إِلَى الرِّضَى والأَمَلِ .

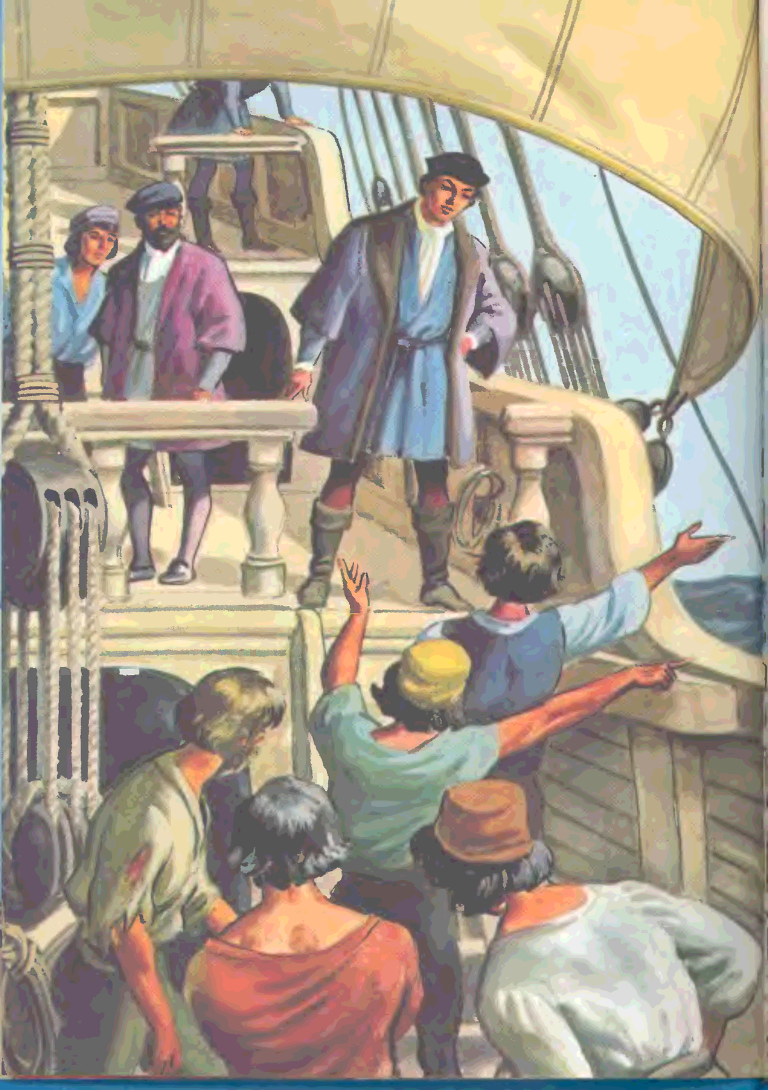


حَدَثَ ذلِكَ في الخامِسِ والعِشْرينَ مِنْ شَهْرِ أَيْلولَ ، ومَعَ أَنَّ البَحّارَةَ لَمْ يَعْرِفُوا هذا التّاريخَ لِحُسْنِ الحَظِّ ، فَقَدْ كانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُبْحِرُوا غَرْبًا ثمانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَرَوْا اليابِسَةَ .

كانَ كولمْبُسُ مُسْتَعِدًّا لِمُواصَلَةِ الرِّحْلَةِ ، ولَوِ اسْتَغْرَقَ ذلِكَ شُهُورًا كَثيرَةً ، ولكِنَّ البحّارَةَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ مِثْلُ إيمانِهِ وصَبْرِهِ .

مَرَّ أُسْبوعٌ ، وتَلاهُ آخَرُ . وظَهَرَتْ طُيورٌ كَثيرَةٌ أُخْرَى ، بَيْنَها طُيورٌ بَدَتْ أَنَّها بَرِّيَّةٌ . وأَصْبَحَ البَحّارَةُ لا يُصَدِّقُونَ أَنَّ تِلْكَ كانَتْ عَلامَةً مِنْ عَلاماتِ البَرِّ ، فَذَهَبُوا إلَى كولمْبُسَ مُتَذَمِّرينَ مِنْ طُولِ الرِّحْلَةِ ، وَطالَبُوا بِتَغْييرِ اتِّجاهِ السُّفُنِ . فَحَثَّهُمْ كولمْبُسُ عَلَى الصَّبْرِ قَدْرَ استِطاعَتِهِ ، ولَكِنَّهُمْ كانُوا أَيْضًا يُوشِكُونَ أَنْ يَثُوروا ، لولا ظُهُورُ عَلاماتٍ جَديدَةٍ تَدُلُّ عَلَى الاَقْتِرابِ مِنَ البَرِّ ، أَيَّدَتْ رَأْيَ كولمْبُسَ .

وفي الحادي عَشَرَ مِنْ تَشْرينَ الأَوَّلِ ، وَجَدَ بَحّارَةُ « بِنْتا » خَشَبَةً ضَخْمَةً مَنْقُوشَةً تَعُومُ في الماءِ ، مَعَ غُصْنٍ يَحْمِلُ ثَمَرَ العُلَّيْقِ الأَحْمَرِ . كانَ الشَّيْئانِ بُرْهانًا عَلَى الاَقْتِرابِ مِنَ البَرِّ أَقْوَى مِنْ بُرْهانِ الطُّيورِ ، وقَدْ شارَكَ البَحّارَةُ كولمْبُسَ في حَماسَتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ . وبَدَأُوا يَشْعُرونَ أَنَّ الثَّرْوَةَ الّتي وَعَدَهُمْ كولمْبُسُ بِها قَدْ أَصْبَحَتْ في قَبْضَةِ أَيديهِمْ .



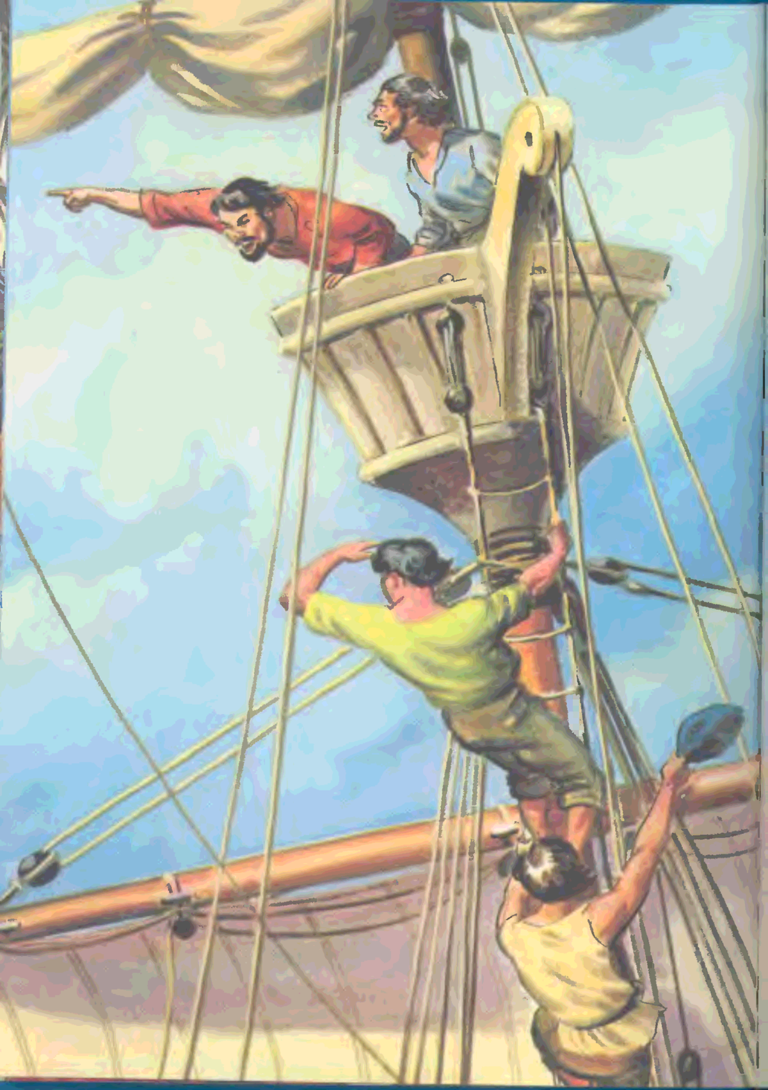
لَقَدْ تَحقَّقَتْ آمالُهُمْ ، ففي السّاعَةِ العاشِرَةِ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ كـانَ كولمُبسُ واقِفًا في مَكانٍ مُرْتَفِعٍ مِنْ مُؤَخَّرِ السَّفينَةِ « سانْتا ماريّا » ، ومُحَدِّقًا إلَى الغَرْبِ ، كما كـانَ يَفْعَلُ لَيْلًا ونَهارًا مُدَّةَ خمسةِ أَسابيعَ طَويلَةٍ . فَرَأى فَجْأَةً نُورًا ضَعيفًا جِدًّا آتيًا مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ .

كانَ مُنْخَفِضًا جِدًّا ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ نُورًا صادِرًا مِنْ نَجْمٍ . وعَدا ذلِكَ كانَ يَتَحَرَّكُ كما لو كانَ إِنْسانٌ يَمْشِي وَهُوَ يَحْمِلُ مِشْعَلًا .

دَعا كولمُبسُ أَحَدَ ضُبّاطِهِ ، فَرَأى النُّورَ أَيْضًا ، ولكِنَّهُ عِنْدَما استَدْعَى الثّالِثَ كانَ قَدِ اخْتَفَى . فَلَمْ يَسْتَطِعْ كولمُبسُ أَنْ يَقُولَ ما إذا كانَ النُّورُ وَهْمًا ، أَوْ حِيْلَةً مِنْ حِيَلِ البَحْرِ .

ظَلَّ كولمُبسُ طُولَ اللَّيْلِ في ذلِكَ المَكانِ المُرْتَفِعِ . وكانَتِ السُّفُنُ قَدْ خَفَّفَتْ مِنْ سُرْعَتِها ، لِكَيْ لا تَصْطَدِمَ في الظَّلامِ بالشّاطِئِ ، إذا كانَ ما بدا لَهُمْ بَرًّا حَقيقِيًّا . وبَدَأَ الظَّلامُ خَلْفَهُمْ يَنْقَشِعُ بالتَّدْريجِ ، ولكِنَّ الجِهَةَ الغَرْبِيَّةَ ظَلَّتْ كُلُّها غارِقَةً في الظَّلامِ . وازْدادَ إِرْهاقُهُمْ لِعُيُونِهِمُ المُوَجَّهَةِ إلَى الغَرْبِ . وكانَ نِصْفُ البَحّارَةِ فَوْقَ الحِبالِ ، ونِصْفُهُمُ الآخَرُ فَوقَ جانِبِ السَّفينَةِ المُمْتَدِّ فَوْقَ سَطْحِها العُلْوِيِّ .

ثُمَّ صَرَخَ بَحّارٌ واقِفٌ عَلَى أَعْلَى سارِيَةِ « نِينا » قائِلًا : « اَلبَرَّ ، اَلبَرَّ ! »



لَقَدْ وَصَلُوا إِلَى البَرِّ أَخيرًا ، وانْتَهَتِ الأَسابيعُ الطَّويلَةُ الَّتي كـانُوا خِلالَها لا يَرَوْنَ حَوْلَهُمْ سِوَى البَحْرِ ، يُحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ . وظَنَّ كَثيرٌ مِنَ البَحَّارَةِ أَنَّهُمْ لَنْ يَرَوا البَرَّ ثانِيَةً ، وكانُوا جَميعًا قَلِقينَ وخائِفينَ ما عدا كولمْبُسَ . ونَسْتَطيعُ أَنْ نَتَخَيَّلَ كَمْ أَنْعَشَتْ نُفُوسَهُمْ رُؤْيَةُ الأَشْجارِ الخُضْرِ .

يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ الرِّجالَ الَّذينَ أَبْحَرُوا مَعَ كولمْبُسَ لَمْ يَغِبِ البَرُّ مِنْ قَبْلُ عَنْ أَبْصارِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ بِضْعِ ساعاتٍ ، أَوْ بِضْعَةِ أَيّامٍ عَلَى الأَكْثَرِ .

كانَ كولمْبُس يَعْتَقِدُ أَنَّهُ ، إِذا أَبْحَرَ غَرْبًا ، سَيَصِلُ إِلَى الهِنْدِ ، الَّتي أَغْلَقَ التُّرْكُ طَريقَها البَرِّيَّةَ . وظَنَّ أَنَّ الجُزُرَ الَّتي وَجَدَها كانَتْ تَقَعُ في أَمْكِنَةٍ قَريبَةٍ مِنَ الهِنْدِ ، وكانَتْ غَلْطَةُ كولمبسَ ، الَّتي اقْتَرَفَها مُنْذُ نَحْوِ خَمْسِمِئَةِ سَنَةٍ ، هِيَ السَّبَبَ في تَسْمِيَتِها بِجُزُرِ الهِنْدِ الغَرْبِيَّةِ ، الاسْمِ الَّذي ما زالَ يُطْلَقُ عَلَيْها إِلَى الآنَ .

نَزَلَ كولمْبُسُ إِلَى البَرِّ بِشَكْلٍ رَسْمِيٍّ ، لابِسًا أَفْخَرَ الثِّيابِ ، وحامِلًا العَلَمَ الإِسبانيَّ ، ونَزَلَ مَعَهُ الأَخَوانِ بِنزونُ وكَثيرٌ مِنَ البَحّارَةِ . وما كادَ يَطَأُ أَرْضَ الشّاطِئِ ، حَتَّى رَكَعَ وقَبَّلَ الأَرْضَ ، ودُمُوعُ الفَرَحِ تَتَساقَطُ مِنْ عَيْنَيْهِ . وبَعْدَ أَنْ شَكَرَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النَّجاحِ الَّذي نالُوهُ ، استَوْلَى عَلَى الجَزيرَةِ بِاسْمِ مَلِكِ إِسبانيا ومَلِكَتِها .



وَجَدَ كولمبُسُ ورِجالُهُ أَنفُسَهُمْ عَلَى جَزيرَةٍ كَبيرَةٍ مُسْتَوِيَةٍ ، نَمَتْ فيها أَشْجارُ الغاباتِ عَلَى حافَةِ خَليجٍ أَزْرَقَ . وتُحيطُ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ أَزْهارٌ مُلَوَّنَةٌ ، لَمْ يَرَ مِثْلَها أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلُ . كانَتْ تِلْكَ الجَزيرَةُ جَنَّةً بَعْدَ قَضاءِ أَربَعَةِ أَسابيعَ في البَحْرِ .

لَمْ يُظْهِرِ المُواطِنُونَ أَيَّةَ عَلامَةٍ مِنْ عَلاماتِ الخَوفِ . لَمْ يَكُنْ لَوْنُ بَشَرَتِهِمْ أَبْيَضَ ولا أَسْوَدَ ، وكانَتْ وجُوهُهُمْ تَعلُوها أَصْباغٌ عَجيبَةٌ . وكانُوا يَحْمِلُونَ رِماحًا قَصِيرَةً مَصْنُوعَةً مِنَ البُوصِ (القَصَبِ) ، وفي رُؤُوسِها أَسْنانُ كَلْبِ البَحْرِ (سَمَكِ القِرْش) . كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا رِجالًا بِيضًا مِنْ قَبْلُ ، ولَمْ تَكُنْ لَهُمْ صِلَةٌ بالمَدَنِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ . وعِنْدَما أَهْدَى كولمبُسُ لَهُمْ عُقُودًا مِنَ الخَرَزِ ، فَرِحُوا بِها كَثيرًا كما يَفْرَحُ الأَولادُ باللُّعَبِ الجَديدَةِ .

كانَ الإِسبانِيُّونَ قَدْ رَأَوُا المُواطِنِينَ مِنْ قَبْلُ عَلَى شاطِئِ أَفريقيا ، ولكِنَّهُمْ رَأَوْا الآنَ شَيْئًا جَديدًا عَلَيْهِمْ . وكانَ رِجالُ هذِهِ الجَزيرَةِ المَجْهُولَةِ ، يُمْسِكُونَ بِلُفافاتٍ صَغيرَةٍ مِنْ أَوراقِ الأَشْجارِ البُنِّيَةِ ، الَّتي أَشْعَلُوا فيها النِّيرانَ ، ثُمَّ وَضَعُوها في أَفْواهِهِمْ ، ومَلأُوا بِدُخانِها رِئاتِهِمْ ، ثُمَّ نَفَخُوهُ في الهَواءِ . كانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ مَعْرِفَةِ الرَّجُلِ الأَبْيَضِ بالتَّبْغِ .

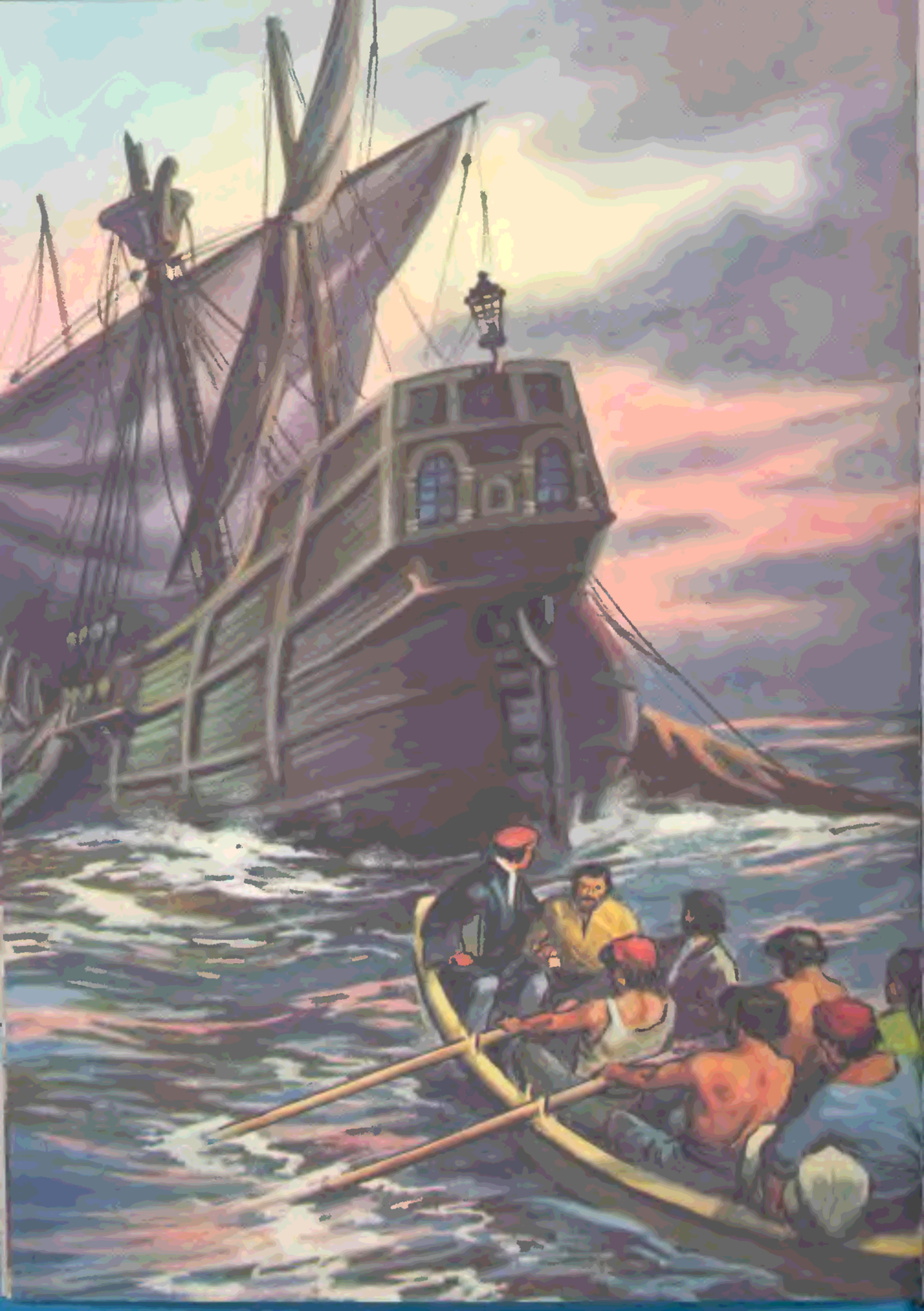


كانَ مِنْ أَحَدِ أَهْدافِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ البَحْرِيَّةِ ، اكتِشافُ جُزُرِ الذَّهَبِ الخُرافِيَّةِ ، الَّتي يَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِيها جبـالًا مِنَ الذَّهَبِ الصُّلْبِ .

كانَ بَعْضُ مُواطِني سان سلفادورَ يَلْبَسُونَ حُلًى ذَهَبِيَّةً صَغيرَةً ، وقَدِ اسْتَفْسَرَ مِنْهُمْ كولمُبسُ ، قَدْرَ اسْتِطاعَتِهِ ، عَنْ مَصْدَرِ ذلِكَ الذَّهَبِ . فأَشارُوا إِلَى الجَنُوبِ ، وقالُوا إِنَّهُ جاءَ مِنْ جَزيرَةٍ كَبيرَةٍ سَمَّوْها كُوبا . فَرَفَعَ كولمُبسُ المَراسِيَ ، وأَبْحَرَ لِلْبَحْثِ عَنْهُ .

تَصَوَّرَ أَنَّ تِلْكَ الجَزيرَةَ هِيَ اليابانُ . وظَلَّ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ يُبْحِرُ مِنْ جَزيرَةٍ إِلَى أُخْرَى ، ويَنْزِلُ في كَثيرٍ مِنْها ، ويَضُمُّها إِلَى أَمْلاكِ إِسْبانيا . لَمْ يَجِدِ اليابانَ ولا جَزيرَةَ الذَّهَبِ . وعِوَضًا عَن ذلِكَ أَصابَتْهُ كارِثَةٌ كادَتْ تُحَطِّمُ مَشْرُوعَهُ كُلَّهُ .

جَنَحَتِ السَّفينَةُ « سانْتا ماريّا » إِلَى البَرِّ ، بِسَبَبِ إِهْمالِ البَحّـارِ المسؤولِ عَنِ الدَّفَّةِ ، إِلَى جَزيرَةٍ سَمّاها كولمُبسُ سان دُومِنْجو . وأَصْبَحَتِ السَّفينَةُ بِسُرْعَةٍ حُطامًا كامِلًا ، فاضْطُرَّ كولمُبسُ إِلَى أَنْ يَنْتَقِلَ هُوَ ، ومـا يَسْتَطيعُ إِنْقـاذَهُ مِنَ المُؤَنِ ، إِلَى السَّفينَةِ « نينْيا » . ثُمَّ أَبْحَرَ كولمُبسُ إِلَى إِسْبانيا ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ كَتيبَةً مِنْ أَرْبَعينَ رَجُـلًا في قَلْعَـةٍ بَناهـا عَـلَى الشّاطِئِ .



وبَعْدَ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ كَثيرَةِ المُجازَفاتِ ، دَخَلَتِ السَّفِينَةُ « نِيْنا » ميناءَ بالوسَ ، بَعْدَ ثمانِيَةِ أَشْهُرٍ مِنْ مُغادَرَتِهِ . فازْدَحَمَ الميناءُ بِسُرْعَةٍ بالنّاسِ الّذينَ لَمْ يَتَوَقَّعُوا أَبَدًا أَنْ يَرَوْا ثانِيَةً كولُمْبُسَ أَوِ السَّفِينَةَ .

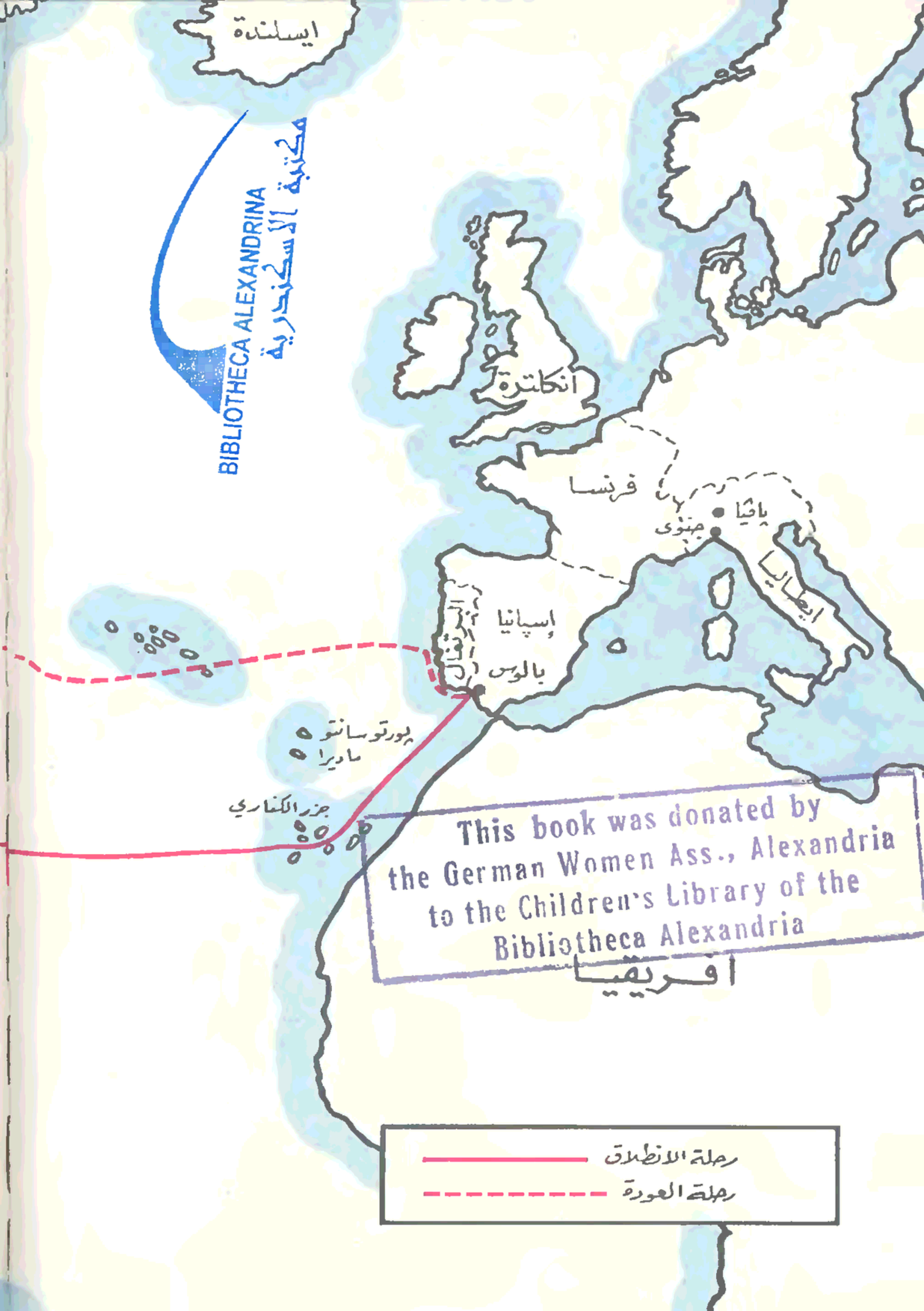
لَمْ يَبْقَ كولُمْبُسُ طَوِيلًا في بالوسَ ؛ لِأَنَّ المَلِكَ والمَلِكَةَ كانا في بَرْشَلونَةَ ، فَأَسْرَعَ عَبْرَ إسبانيا ، حامِلًا الغَنائِمَ الّتي جاءَ بِها مَعَهُ .

دَخَلَ بَرْشَلونَةَ دُخُولَ الظّافِرِينَ ، وَوَراءَهُ بَحّارَتُهُ يَحْمِلُونَ البَبْغاواتِ ، والطُّيُورَ والوحُوشَ الغَرِيبَةَ الأُخْرَى ، إضافَةً إلى حُلِيِّ مُواطِنِي الجُزُرِ المُكْتَشَفَةِ حَديثًا وأَسْلِحَتِهِمْ . ولكِنَّ الّذي اسْتَرْعَى انْتِباهَ الحُشُودِ الإسبانيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ ، كانَ المُواطِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ، إذْ أَحْضَرَ كولُمْبُسُ مَعَهُ سِتَّةً مِنْهُمْ إلى إسْبانيا لِكَيْ يَتَنَصَّرُوا .

أَصْبَحَ كولُمْبُسُ الآنَ بَطَلَ السّاعَةِ . فَفِي البَلاطِ المَلَكِيِّ ، حَيْثُ سَخِرَ مِنْهُ رِجالُ البَلاطِ مِنْ قَبْلُ ، اسْتُقْبِلَ اسْتِقْبالًا حافِلًا جِدًّا ، وأُجْلِسَ إلى يَمينِ المَلِكِ . وعُيِّنَ أَميرالًا في الأُسْطولِ الإسبانِيِّ ، ومُنِحَ لَقَبَ نَبِيلٍ .

وعِنْدَما جَلَسَ كولُمْبُسُ هُناكَ ، وَهُوَ في قِمَّةِ مَجْدِهِ العظيمِ ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ شَعَرَ بِأَنَّ صَبْرَهُ ، وعَزِيمَتَهُ ، وعَمَلَهُ الشّاقَّ الطَّويلَ قَدْ كُوفِيءَ عَلَيْها في النِّهايَةِ .





ايسلندة
انكلترة
فرنسا
بافيا
جنوى
ايطاليا
اسبانيا
البرتغال
بالوس
بورتو سانتو
ماديرا
جزر الكناري
افريقيا
رحلة الانطلاق
رحلة العودة

الرّحلة الأولى [١]

لكريستوفر كولمبس

امريكا الشمالية

المحيط الاطلسي

سان سلفادور

كوبا

سان دومنجو

جزر الهند الغربية

المحيط الباسيفيكي

امريكا الجنوبية

السلسلة التاريخية

1 – جان دارك
2 – ماركو بولو
3 – الكابتن سكوت
4 – نابوليون
5 – كليوباترا ومصر القديمة
6 – تشارلز ديكنز
7 – كريستوفر كولومبوس
8 – الإسكندر الأكبر
9 – الحضارات الكبرى : مصر
10 – الحضارات الكبرى : اليونان
11 – فلورنس نيتنغيل
12 – الحضارات الكبرى : روما
13 – القبطان كوك
14 – روبرت لويس ستيفنسون
15 – هنيبعل
16 – الحضارات الكبرى : كريت
17 – الحضارات الكبرى : الفايكنج
18 – الحضارات الكبرى : الأزتيك

Series 561 Arabic

في سلسلة كتب المطالعة الآن أكثر من ٢٠٠ كتاب من الموضوعات تناسب مختلف الأعمار . اطلب البيان الى

مكتبة لبنان – ساحة رياض الصلح –

